همـــزة الـــلانهـــائـــي

رياض النعماني

وجهته البعيد.. البعيد، وقد غادره الظاهر منذ فتره طويلة.. أنهكته نفسه في الذهاب الدائم نحو الباطن.. إتقن طويلا إشارات التأويل حتى صار من أولي الأسرار .. غاب عن نفسه كثيراً ودخل في نهر التحولات الدائم ..خرج عن نفسه في دخول لاينتهي، تجده مرة قنديلا على بوابة الخلق، ومرة نغمة في أعالي المقام مرة حجراً متكئا على رياح المجهول ومرة نهرا... مرة صمتا مدويا في قمة الهاوية... مرة إصغاء يرى عند حافة الزرقة البنفسجية لمساء لم يأت بعد مرة همزة اللا نهائي، ومرة تاء الوردة أو التأنيث.. يبكي ولا يراه الدمع ولا الخليقة..

انه بعض من لألأة النبع وتأجج اللقاح بين زهرتين

مشردا في ارض القصيدة لا يلوي على ركن ولا وطن.. مازال يجوب الليل والأرصفة وبوابات يفتحها على حزن الدهور الداكنة لا يطمئن لشيء مثلما يطمئن للقلق ، لا يدرك الاستقرار الاعندما يكون في التأجج الحار بين جناحي قطا مكهرب

ولا ينام إلا بين لحظتين واحدة ذهبت وواحدة لم تجيء بعد.. هو يقول ويصر على انه غيره ..:ويضيف:إنني النقيض المستمر لي،

ويستمر : أنا النقص الأبدي الذي يبحث عن تكامله في الآخر .. هويته فضاء مفتوح على كل الجهات ... متعدد

متنوع .. يقول انه لا يلتقي نفسه ألا ليغادرها، ويشبهها كي يغايرها

يدعي أن الكرز هو الامتثال الأشهى لنبيذ تعده المواسم في مذاق الشفتين.

اللذة احتفال المطلق بشهد أنثى التوت السهرانة في لؤلؤ الوجود على حرير القز

بدد عمره في عمر ظل يأرجحه ـــ في أناقة مفرطة ـــفي قوس حرف النون، ويتفتت لأنه ومنذ الأزل يرافق حرقة هذا الحرف الإلهي في رحلة عذابه الأبدية نحو اكتماله في دائرة تدخل في نسيج دورة الكون فيفشل .

يحب هيغل لان جدله المادي لا يقصي الروحانية عن حركة التناقض التي ستستمر ويرى في حركة التصوف فضاءاً مفتوحا لاحتضان تشوفات الكائن، وأسئلته، وانه محاولة كبرى للخلاص من مأزق الحياة التي

تصادر الذات بين فردانية ضيقه وبين عمومية مجتمع تبدو كالعدمية.. كلاهما يفقران الإنسان يحرمانه من غبطة الصعود نحو اكتماله الذي قال به الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، وأراده يسوع المسيح المبشر بالبياض والنشيد الرعوي الممجد لخطى الفرد العائد إلى وحدته الأصلية مع أمه الطبيعة الأولى

يطرق بوابات العالم باحثا عن سؤاله الأبدي الذي حير الخارق المحتفي بالبسيط، يلعب بخرز نساها الزمان في خفق أجنحة الطفولة البعيدة، ويغرف بأصابعه برق السماوات ثم يرشقه على ذهب المدى مهيأ الزمن في شهقات عالية تشبه هبوط الرسالات على شعاع خاصرة تضلل موسم النضج فيكتمل التمر في أوان التفاح

وأخيرا اكتشف هذا العاشق ـــ الذي اصطفته (الهالة) ليدخل في طقس ورموز ولانهائية حرف الهاء، ضاع فصار لا يرى إلا وحيدا وهو يبكي في طرقات بغداد، ويسهر في ظلمة يصر على انها شرفة (زينب).

يضيع ويواصل ضياعه في البتاوين يريد الإمساك بخيط واحد من علائق وحيوات وصداقات ذالك الزمان البغدادي النادر المدهش فيخفق، لا يدله الدليل على عزلة رشدي العامل التي لم يجد منها إلا هذه الكأس الرائعة التي خلفها في حديقة اسمها (علي)

يجلس في مقهى إبراهيم (المعقدين) فيشهق في بكاء مخنوق لأنه لم يعثر على مظهر عبد عباس

(بن الرجل الباسل الذي أنقذ حشد اليمام المسجون في فرن سماوي رهيب أعدته كتائب الحرس القومي الرهيب...أول العابرين على جسر الصرافية الجميل)

يبكي.. ويبكي وليس من أسواق في بغداد ليجمع الناس فيها وحولها كي يقول محنته أو محنة (عبد القادر الكيلاني)

إنه يبكي اليوم لأنه هكذا إكتشف فجأة إنه بلا وطن في هذا التيه اللانهائي- العالم

ليس له من جدار نهائي يستند إليه ويقضي بقية الليل الطويل لعمره السريع، التلف.. حقيقة إنه بلا وطن.. لا في الشام التي أحبها بجنون وكان يناديها: يا أختي.. ولا في كوبنهاكن المصاب بنعمة الامتنان لمعروفها الكبير، ولا في بيروت العظيمة، ولا في الإمارات التي تذكره بعراق سنوات ما قبل التشوه..، ولا في وطنه الأول العراق منذ أن احتله غير الأمريكي ودخله بقطار العام ١٩٦٣، وظل يسير في محطات احتلاله... عام ١٩٦٧ثم عام ١٩٧٩.. وعام ٢٠٠٣.. حيث دخل وطنه ليس في دوائر النور التي كان يطمح للطيران فيها بحثا عن جمال الحقيقة أو فرح التوحد مع جوهر وأصل العالم، بل صار جزءا من آلة وثقل وكونية الظلام الشرسة.

إنه يبكي

حلم المتنبي ووصل بن عطاء وحمدان بن قرمط وإسحاق الموصلي والجواهري وجواد علي وإبراهيم السامرائي والمخزومي وجواد سليم والملائكة وحسين مردان..، وهو يرى إلى وطنه المنهوب والممزق بنصال شرسة لذئاب الردة الطائفية والتخلف.

يبكي لأنه يدرك جيدا عمق وعمر الخراب والظلام اللذين أغرق فيهما وطنه..

ينشج لأنه وحيد.. وبلا وطن

دوريـــــات

تواصل في عدد جديد

محمد عبدالله

صدر العدد ٢٩ من مجلة « تواصل « الشهرية عن هيئة الاعلام والاتصالات بـ ٨٨ صفحة من القطع الكبير .

وتضمن العدد مواضيع شتى في حقول الاعلا م والاتصالات والتكنولوجيا وتقنيات الحاسوب اضافة الى الابواب في الاعلام والبحوث والصحافة .

واستهل العدد بدراسة كتبها محمد وليد صالح بعنوان « الاعلام والانتخابات .. الصورة المزدوجة « محاولا تسليط الضوء على الحملات الاعلامية والتدابير المتخذة والاستعدادات مفيدا بان تلك الحملات تقترب من الحملات السياسية واشار الى انها ادت دورا كبيرا في توجيه الناخبين والتأثير فيهم . وفي موضوع «الاعلام الجديد .. يعيد تشكيل خرائطه القديمة « للدكتور كاظم المقدادي تطرق فيه الى الرؤية الواسعة في رسم اهمية الثورة الاعلامية في ميدان تكنولوجيا الاتصال والتي اسهمت في اتساع رقعة المد الفضائي على حساب رقعة الاعلام المحلي الاخذ بالانحسار ، وفي حقل ترجمة تواصل نقرأ موضوع « مؤشرات للاعلام في ظل الديمقراطية « حيث صدر في ٣ / ١١ / ٢٠٠٨ عن البرلمان الاوربي قرارا يرسم فيه المبادئ الاساسية لحرية الرأي والتعبير وحق الوصول الى المعلومات في ظل الانظمة الديمقراطية وهناك موضوع لسعاد خدا كريم بعنوان « العنف على شاشة التلفزيون « حيث تقول الكاتبة ان التلفاز يعد من الوسائل الاعلامية الاكثر تأثيرا في المتلقي وعرجت الى تعريف العنف الذي يظهر على الشاشة الافلام ذات الطابع السوبرماني والتي ترسخ في اذهان الاطفال مشاهد العنف . اضافة الى موضوع ترجمه عادل العامل يحمل عنوان « صحف المستقبل النخبوية « وتضمن العدد موضوعا يحمل عنوان « صعود التقانة المرئية لكاتبه ثامر كامل يشير في الى ما تثيره ظاهرة العولمة وثورة المعلومات وتكنولوجيا الاتصال ويتساءل الباحث هل يمكن عد التطور التكنولوجي شكلا من اشكال الانتاج الثقافي ؟ ومن اعداد « تواصل « سنقرأ « اين تذهب اكنان النفايات الالكترونية « ونقرأ الجوانب الدعائية في السينما العالمية للدكتور وسام فاضل وهناك موضوع بعنوان الثقافة العراقية تحت سلطة المحرم مرة اخرى وموضوع الحدس الفني لناظم العبيدي اضافة الى العمود الاخير في الصفحة الاخيرة كتبه رئيس التحرير وميض احسان بعنوان مصباح للسنة الجديدة .

في روايته الجديدة (وحيد في الظلام)..

الكاتب الأمريكي بول اوستر يقود أمريكا الى حرب اهلية

ترجمة:عدوية الهلالي

يعود المؤلف الأمريكي بول اوستر بقوة الى الساحة الادبية في فرنسا ليصبح نجما لمكتباتها من خلال روايته الأخيرة التي يتخيل فيها الولايات المتحدة وقد غدت ضحية لحرب اهلية جديدة..

يبلغ اوستر من العمر ٦٢ عاما ويملك شخصية جذابة واعمال فنية مترابطة ومنطقية ، وهو واحد من المؤلفين الأمريكان المفضلين لدى الفرنسيين إذ تم اكتشافه في فرنسا في نهاية سنوات الثمانينات من خلال (السلسلة النيويوركية) المكونة من ثلاثة اجزاء ثم تابعه قرائه عبر اكثر من عشرين عملا ادبيا، حظي بعضها بسمة الافضل مبيعا في فرنسا مثل رواية (اختراع العزلة) ورواية (ليفياثان) التي حاز عنها جائزة ميديسي للأدب الاجنبي في عام ١٩٩٣.

اهتم اوستر بكل صنوف الفن والأدب ومن بينها السينما إذ جرى توافق كبير بينه وبين المخرج واين وونغ كانت ثماره افلام (دخان) و(بروكلين) ثم اعقبها بفيلم (لولو على الجسر) ، واذا لم ينل اوستر احتفاء النقاد به بشكل كبير كمؤلف سينمائي فقد ظل نجما للمكتبات الفرنسية من خلال رواياته.

تحمل روايته الأخيرة عنوان (وحيد في الظلام) ويجسد بطلها الرئيسي (اوغست بريل) شخصية ناقد ادبي شهير احيل التقاعد بعد تعرضه لحادث وإصابته بعوق جزئي اضطره الى المكوث في المنزل في استراحة اجبارية عانى فيها بشدة من الارق.

وفي ساعات الليل الطويلة ، كانت تهجم على رأس بريل ذكريات حزينة يستذكر فيها موتاه المقربين، ولكي يطرد تلك الأفكار السود، لجأ الى الوهم وبدأ يرسم في خياله صورة جديدة مبتكرة لتاريخ بلاده.

عند هذه النقطة، يغادر القارئ منزل بريل في فيرمونت ليدخل الى عالم آخر من ابتكار خياله.

وفي هذا العالم الجديد، لاوجود لحادثة (الحادي عشر من ايلول) وبدلا من ذلك، تغرق أمريكا في حرب اهلية بقيادة جورج بوش.. بهذه الطريقة، ينجح اوستر في اجتذاب القارئ الى احداث يترابط فيها الوهم والحقيقة بشكل يثير الإعجاب للإشارة الى ذنوب امريكا الكثيرة.

حققت رواية اوستر لدى صدورها نجاحا هائلا وتم بيع اكثر من ٨٠٠٠ نسخة منها خلال ١٥ يوما فقط.. كما احتل العمل قمة مبيعات روايات الشهر الحالي، إضافة الى تكلله بهالة رائعة من النقد في الصحافة الأدبية.

ويؤمن قراء اوستر الفرنسيين به بشكل كبير كما تقول ناشرة كتبه ماري كاثرين فاشير، فهم واثقون من نتاجاته مهما كانت تحولاتها وخفاياها، وكانت روايته السابقة التي تحمل عنوان (المخطوطة) قد افحمت النقاد وأعجبت القراء، لكنها لم تترك آثارها عليهم كما فعلت هذه الرواية التي تتجاهل حادثة (١١ايلول) تماماً.

ويرى اوستر ان ثقة القراء بالكاتب هي التي تقوده الى النجاح لذا فهو يلتزم كثيرا بنشر رواياته بشكل منتظم، وهاهو يتهيأ حاليا لإصدار روايته الجديدة التي ستحمل عنوان (الخفي) والتي ما تزال حتى الآن في دور النشر ومن المتوقع ان تصدر مع مطلع العام المقبل.

متابعة

رحيل أستاذ الانثروبولوجيا العراقي أ.د. عبد علي سلمان

المدى

فجعت الأوساط الأكاديمية العراقية برحيل أستاذ الانثروبولوجيا في قسم علم الاجتماع بجامعة القادسية في مدينة الديوانية العراقية، قبل يومين برحيل أستاذ الانثروبولوجيا د. عبد علي سلمان المالكي، أثر جلطة دماغية ألمت به ليفارق الحياة وهو في أوج عطائه العلمي، ولاسيما على صعيدي التدريس والتأليف، إضافة إلى العمل الإداري.

د. سلمان ولد في مدينة الناصرية جنوبي العراق عام ١٩٤٩، وهو من الجيل الثاني من الانثروبولوجيين العراقيين، حيث اعد رسالته للماجستير عن قرية (الشرش) قرب مدينة القرنة شمالي البصرة، وهي من قرى الاهوار، وقد كانت دراسته من الدراسات الرائدة التي تبعت دراستي الرائد الانثروبولوجي العراقي الأول البروفيسور شاكر مصطفى سليم في نهاية أربعينيات القرن الماضي عن قرية الجبايش في اهوار الناصرية جنوب العراق. نشرت رسالة د. سلمان في كتاب تحت عنوان (المجتمع الريفي في العراق).

أمضى وقتا طويلا باحثا عن فرصة إكمال دراسته للدكتوراه في خارج العراق، لكن تلك الفرصة لم تحصل للأسف، فاضطر لاحقا الى أن يكملها في جامعة بغداد، حيث كانت بعنوان (السكان والتنمية في العراق)، وذلك بإشراف البروفيسور د. يونس حمادي علي التكريتي عام ١٩٩٧.

تلويحة المدى

روّاد قصيدة النثر في العراق ٣

شاكر لعيبي

بعد معروف الرصافي ورفائيل بطي من رواد قصيدة النثر في العراق، يمكننا أن نمرّ على شكري الفضلي من أجل إكرامه في الأقل في ثقافة مُصابَة بداء النسيان مثل ثقافتنا العربية. لقد تأثر شكري الفضلي (١٨٨٢- ١٩٢٦) بما دعا إليه جميل صدقي الزهاوي من كتابة الشعر المُرْسَل (الموزون غير المقفى)، وتُقدم قصيدته «حمامة وهرّة» دليلاً على استيعابه، وعياً أو حدساً، للضرورات الداخلية لقيام الشعر المُرْسَل، وهو أن يقتنص سياقًا حكائيًا، يقوى الترابُط بين الأبيات بديلاً عن وحدة القافية.

لنقرر التالي في إطار سياقي: إن العلاقة لم تكن بالوضوح الكافي بين (شعر منثور)، خالٍ تماماً من الوزن، وما نسميه اليوم بالشعر الحر (أو ما سُمّي وقتها مرة ثانية بالشعر المرسل وهذا دليل على التباس المصطلحات يومها) من جهة، ومن جهة أخرى فإن استجابةً نهائيةً لشعر منثور بالتمام لم تكن ممكنة حيث قطع بعضهم منتصف الطريق فحسبَ نحوَ الشعر المنثور عبر (القصيدة الحرة)، بسبب كثافة حضور الموسيقى التقليدية في الأذن العربية في العراق.

تقدِّم كتابات الدكتور يوسف عز الدين النقدية والأرشيفية، برغم نزعة مُحافِظة قوية تتناثر منها، دلائل موثّقة عن تطور الشعرية العراقية الجديدةً وعن المنسيين والمهمشين، سهواً أو عمداً، فيها. وفي يقيني فإن العودة المتأنية لمراجع وأمثلة د. عز الدين تستأهل إعادة تقييم ومراجَعَة متفحّصة قد تعيد الاعتبار لبعض البداهات النقدية والتاريخية بشأن تطوُّر وروّاد (الشعر الحر) في الأقل والشعر المنثور في العراق.

يقول د. عز الدين إن: العديد من الأدباء والشعراء الشباب أو هواة الأدب قد قلّدوا رفائيل بطي، ومنهم شكري الفضلي وسمي شعره الشعر المرسل، ونشر في جريدة (العراق) قصيدة حرّة موزونة منها:

كانت تنوح حمامة والصبح مرآة ادكار / فتريك حاجتها إلى ألم التآلف

والمعاش في (معجم البابطين) المتوفر حالياً في يدي نقرأ: شكري بن محمود بن أحمد أغا. وُلد في بغداد، وفيها توفي. كان ميلاده في محلة «الفضل» من رصافة بغداد، فنسب إليها. عاش في العراق وتركيا. كان أبوه تاجرًا، ولكن طفولته شهدت تحوّلاً، إذ اصطحبه خالد صالح أفندي - رئيس كتّاب حامية لواء السليمانية فلبث في مدارسها أربع عشرة سنة، درس خلالها اللغات: العربية والكردية والتركية. ثم عاد إلى بغداد فدخل المدرسة الرشدية العسكرية، وأنهاها بعد زمن قصير. عين مدرسًا في المدرسة الرشدية العسكرية، وفي ١٩٠٨ سافر إلى الآستانة، وظل مدة عامين يعمل في الصحافة التركية، وكان يريد الالتحاق بإحدى الكليات هناك ولم يفلح، فعاد إلى بغداد. كان ينظم الشعر باللغتين: الكردية والفارسية، إلى جوار العربية. عرّب أعمال المحاكم في العراق بعد أن كانت تكتب بالتركية، وكان عضوًا في اللجان العدلية.. كما عمل رئيس كتاب في ديوان مجلس الوزراء، وعمل في الصحافة محرِّرًا في صحف عربية وفارسية وكردية، وفي الميدان الوطنيّ كان متأثرًا بمبادئ الثورة الفرنسية، فعارض السلطة العثمانية وسجن في كركوك وقدم إلى محكمة عسكرية، كما كان من مؤسسي فرع حزب الحرية والائتلاف المعارض لحزب الاتحاد والترقي (التركي). أصابه داء الصدر، ومات به، ولم يكن قد تزوج. احتفظ له كتاب «من شعرائنا المنسيين» بثلاث قصائد وعدة مقطوعات، ونشرت له صحف عصره عددًا من القصائد، وقد ذكرت بعض المصادر أن له ديوان شعر مخطوطًا. وله كتب المقالة الصحفية في موضوعات مختلفة، كما ألف عدة كتب لا تزال مخطوطة، في تاريخ العراق وجغرافيته، وعن «فلسفة الخيام». رثاه الشاعر جميل صدقي الزهاوي بقصيدة: نشرت في جريدة «نداء الشعب» البغدادية، عدد ١٧ من حزيران ١٩٢٦، وهي من اثنين وأربعين بيتًا، ولم يتضمنها ديوان الزهاوي.

يذكر د. عز الدين كذلك معلومة بالغة الأهمية وهي أن (شعر التفعيلة)، وبسبب الصدى والأثر الذي تركه نشاط رفائيل بطي في الترويج للشعر المنثور، قد قام في العراق منذ سنوات الثلاثينيات. يقول: «أول بداية الشعر الحر الواضحة أو شعر التفعيلة نظمها أديب قانوني اسمه طارق عبد الحافظ نور الدين نشرها في جريدة (بغداد) سنة ١٩٣٠م، وله قصيدة أخرى أثبتُّ واحدة منها ليعرف دعاة السبق في الشعر الذي ظهر سنة ١٩٤٦ بأنهم ساروا على نهجه وأهمل اسم هذا الشاعر لأنه انغمر في العمل القانوني والمحاكمات، فقد قال: "سحر الجمال / كاعب في وجنتيها / فجر أحلام ينام / رب تقبيل يزيد/ في احمراره/ لامعة من مقلتيها / لهب آمال/ يضام / بجمال لا يسير في أواره / كاعب جسمها/ زبد البحار / ففيها الضياء وفيها الدماء / ثغرها الحلو الجميل / من سحر خصيبه» (مقالة ليوسف عز الدين منشورة في جريدة أخبار الأدب المصرية (العدد ١٤٢٧، الأحد ٢٥ حزيران ٢٠٠٦) تحت عنوان «هل حمل أمين الريحاني رياح العولمة من أمريكا للشعر العربي؟!»). ويضيف: «إن شعر هذا الشاعر [طارق عبد الحافظ نور الدين] دليل على إن شعر التفعيلة كان قد عرفه الأدب قبل فترة من تجديد السياب ونازك الملائكة، وجرائد العراق في هذه الثلاثينات نشرت عددا كبيراً منها». ويذكر كذلك: «ومن هذا الشعر الذي أقرب إلى شعر التفعيلة قصيدة لخضر صالح نشرت في جريدة الاستقلال سنة ١٩٣٠م تحت عنوان الشعر المرسل» يوردها في مقالته ولا مجال لإيرادها في هذا العمود.

عبر أمثلة عز الدين التي لن نشكّ بها فإن الاستنتاج الجديد الذي لم يقله هو يكمن في التالي: إزاء الإفراط والغلو الذي وجدته الثقافة العراقية في الدعوة للشعر المنثور انبثق شعرٌ حرٌّ لا يفرِّط بالوزن ولا القافية لكن لمصلحة شعر جديد متحرّر من وحدة البيت، قبل نازك والسياب. وهنا يمكن القول إن الدعوة لقصيدة النثر في العراق على يد رفائيل بطي كانت سبباً مباشراً لظهور الشعر الحر.

يذكر د. عز الدين كذلك معلومة بالغة الأهمية وهي أن (شعر التفعيلة)، وبسبب الصدى والأثر الذي تركه نشاط رفائيل بطي في الترويج للشعر المنثور، قد قام في العراق منذ سنوات الثلاثينيات. يقول: «أول بداية الشعر الحر الواضحة أو شعر التفعيلة نظمها أديب قانوني اسمه طارق عبد الحافظ نور الدين نشرها في جريدة (بغداد) سنة ١٩٣٠م، وله قصيدة أخرى أثبتُّ واحدة منها ليعرف دعاة السبق في الشعر الذي ظهر سنة ١٩٤٦ بأنهم ساروا على نهجه وأهمل اسم هذا الشاعر لأنه انغمر في العمل القانوني والمحاكمات، فقد قال: "سحر الجمال / كاعب في وجنتيها / فجر أحلام ينام / رب تقبيل يزيد/ في احمراره/ لامعة من مقلتيها / لهب آمال/ يضام / بجمال لا يسير في أواره / كاعب جسمها/ زبد البحار / ففيها الضياء وفيها الدماء / ثغرها الحلو الجميل / من سحر خصيبه» (مقالة ليوسف عز الدين منشورة في جريدة أخبار الأدب المصرية (العدد ١٤٢٧، الأحد ٢٥ حزيران ٢٠٠٦) تحت عنوان «هل حمل أمين الريحاني رياح العولمة من أمريكا للشعر العربي؟!»). ويضيف: «إن شعر هذا الشاعر [طارق عبد الحافظ نور الدين] دليل على إن شعر التفعيلة كان قد عرفه الأدب قبل فترة من تجديد السياب ونازك الملائكة، وجرائد العراق في هذه الثلاثينات نشرت عددا كبيراً منها». ويذكر كذلك: «ومن هذا الشعر الذي أقرب إلى شعر التفعيلة قصيدة لخضر صالح نشرت في جريدة الاستقلال سنة ١٩٣٠م تحت عنوان الشعر المرسل» يوردها في مقالته ولا مجال لإيرادها في هذا العمود.

عبر أمثلة عز الدين التي لن نشكّ بها فإن الاستنتاج الجديد الذي لم يقله هو يكمن في التالي: إزاء الإفراط والغلو الذي وجدته الثقافة العراقية في الدعوة للشعر المنثور انبثق شعرٌ حرٌّ لا يفرِّط بالوزن ولا القافية لكن لمصلحة شعر جديد متحرّر من وحدة البيت، قبل نازك والسياب. وهنا يمكن القول إن الدعوة لقصيدة النثر في العراق على يد رفائيل بطي كانت سبباً مباشراً لظهور الشعر الحر.

الـنـقـد الـمـوسـيـقـي .. بـيـن الاحـكـام والأوصـــاف والافـتـراضـات

2-2

عادل الهاشمي

ومن الصعوبات التي تنزع الى الخير الأسمى ، هي التي تقضي بالحديث عن الفرق الجوهري بين الكتابة في الموسيقى والكتابة عن الموسيقى ، فأولى تمثلها فئة من النقاد والمتخصصين بوصفها مبحثاً تعليمياً وثقافياً ، وهذه قامت بجهود نقاد مرموقين ، والثانية تمثلها فئة نشطة من المشتغلين في حقل الموسيقى من غير المتخصصين ، هؤلاء الذين ألقت عليهم اعباء العمل الاعلامي والصحفي ان يتابعوا حقل الموسيقى بروح ذواقة تقوم على الملامسة الشكلية لا التحليل العميق ، الاولى تشكل بثقة معرفية في انوار العلم الموسيقي، الثانية تشكل كابحاً في مضمار الابداع التحليلي، لأنها معراة من أبجدية العلم الموسيقي، وحقيقة الامر ان أي إقتراب من ملامح التجربة الجمالية في الاستماع الى الموسيقى لا تقوم على عناصر الجمال النغمي والنماذج الايقاعية لحركة اللحن حسب أنما ايضاً تنشد الاستماع اليقظ .المفكر .في محاولة الوصول الى فهم عميق لأسباب هذا الاحساس الثمين بالعناصر الجمالية ومعرفة كهنة تلك العوامل الكامنة في تركيب الموسيقى وادائها.

وقد يتساءل البعض عن ماهية الدوافع في إحتلال الناقد الموسيقي في بلادنا، هذه الاهمية الاستثنائية؟ ومن المصيب ان نعزو ذلك الى عدة عوامل ، وهي عوامل تحمل بلا جدال طابعا دراميا راهنياً أكيداً، لعل في المقدمة منها إهتمام الصحافة ووسائل النشر المرئية بالنقد الموسيقي كما هي الحال في اهتمامها بالنقد الادبي والسينمائي والمسرحي والتشكيلي والشعري والقصصي وسواه، الى جانب ذلك ، ان الناقد استطاع بصبره وجلده ونضاله الثقافي، ان يسد جزءاً عزيزاً من غياب اوليات المعرفة النظرية الموسيقية على النطاق العام، ان جمهرة المتذوقين للفن الموسيقي والغنائي على اعتقاد بحاجتهم الى الاحتماء بسلطة الناقد الموسيقي لكي ينبئه في الكشف عن دلالات التجربة الفنية في العمل الموسيقي والغنائي.

إن الناقد الكفء لايكتفي في حديثه وصف الموسيقى كطبائع أو تصور الموسيقى كأوضاع، إنما يستخدم في نقده الطبائع والاوضاع معاً ليقدم دراية تليق بنقد يتشارك فيه الحس الريان للاشياء مع فضائل تنميتها العقلية، وحقيقة الامر، ان ممارسة الناقد الموسيقي المحترف لمهنته في ايامنا هذه، أضحت واجباً ثقافياً ، ان انتقاداته في حقل الموسيقى والغناء ليست لاذعة في كثير من الاحيان ، كذلك انها ليست رمزاً لحالة كيفية ، بل ان موقف الناقد المتخصص ضروري تماماً لتقدم الفن الموسيقي والغنائي ، وانه من الخطأ حقاً ان نعتقد كما يقول البعض، ان الناقد الموسيقي يمكن الاستغناء عنه كلية، ذلك انه من جملة الاشخاص الذين يتحددون بمهمات اجتماعية ثقافية ، فهو ليس كائناً فائضاً عن حاجة البناء الثقافي، وعليه فأن دور هذا الناقد يضمحل باعتباره سلطة ثقافية معرفية في حقل الموسيقى والغناء، تزداد أو تقل فرص الاحتكام اليها تبعاً لظروف النشاط الانساني ازاء هذا الحقل. ولقد سألني عدد من الفنانين والمعنيين بالحقول الثقافية للموسيقى والغناء ، عن سبب تأخر النقد الموسيقي عندنا في العراق؟ وكانت اجابتي تتحدد من ان النقد الموسيقي يشبه موضوعه! ولتوضيح ذلك نقول: انه بالقدر الذي يطالب فيه النقد الموسيقي ان يكون نقداً حقيقياً ، ملماً باصراً واعياً ، معرفياً علينا ان نطالب العمل الموسيقي الذي هو . موضوع . النقد وجوهره الاساس ان يكون هو الاخر عملا فنياً متكاملاً ، ومن خلال هذا الاطار تتبدى لنا الظاهرة الثقافية داخل حقل الموسيقى، ليست من خلال شروط مطلقة، بل من خلال التكوينات والتناميات المستمرة لكل اطراف هذه الظاهرة، ونعني بها الموسيقى والملحن والمؤدي والعازف والمؤلف النصي للاغنية والاسماع والنقاد، سؤال يعترضنا وهو جانب من إجراء ما الذي يحدث الان في الساحة الموسيقية؟ الاجابة تتم من خلال نقطتين اساسيتين (الاولى) أوصاف النقد الموسيقي كما تظهر داخل حقل الموسيقى (الثانية) اوصاف الحركة الموسيقية والغنائية كما تتبدى للنقد الموسيقي!

إن اشكالية النقد تتجاوز الناقد والفنان معاً الى عموم الحركة الموسيقية في بلدنا وعليه فأن وجود نقاد متخصصين ووجود من يكتبون بغير تخصص في صحافتنا اليومية ، وغياب التقاليد والنمطيات الصحيحة في النقد من حديث المناهج والمعارف الصلبة والأطر البيداغوجية . التربوية . هي بطبيعة الحالة مسألة مؤشرة ، إذا ما اعتقدنا ان عمر الانشاء اللحني العراقي ، هو عمر ما زال في بداياته الى جانب ذلك فإن نموه البطيء غير خليق بعد بأن يقبض بيده على قانون جوهري من قوانين الخبرة الانسانية.

لقد بقي الفن الموسيقي الغنائي العراقي فترة طويلة يعيش عزلة حقيقية ليست برغبة منه، انما هي عزلة فرضتها عليه مجموعة من التقاليد والاعراف الاجتماعية، وازاء ذلك كان لابد للفنان العراقي من ان يفتش عن تأثرات يواجه بها الحصارات التي فرضت عليه، فتأثر بتيارات الفن العربي في قوالب وقواعد التلحين التي جاءت على يد كبار الملحنين العرب، محمد عثمان ، سيد درويش ، داود حسني، كامل الخلعي، الشيخ (ابو العلا محمد) محمد عبد الوهاب، محمد القصبجي ، زكريا احمد ، رياض السنباطين وفريد الاطرش، اذ ساعد هذا التأثر أعمال الملحنين العراقيين الى ان تكون مؤشرات تاريخية لحركة البدء، وكان على الناقد المتخصص ان يواجه هذا الكم اللحني مستعيناً بثقافته من خلال ربطه المستمر بين عمل الفنان وبين جريان الحياة والوعي بالتاريخ وتفهم الايديولوجيات النظرية في الموسيقى، اما اشكالية الفن الموسيقي ، فهي الاخرى اكثر عتمة ، لقد أتيحت لي الظروف ان اطلع على آراء الفنانين العراقيين في ثلاثينيات وأربعينيات وخمسينيات هذا القرن المنشورة في الصحف عصرئذن في القرن الماضي، اذ تعرفت على آراء اتخذت شكلاً خاصاً وغريباً من اشكال الفهم والتعبير لم نعهده من قبل كشفت هذه الآراء المنشورة عن ضعف البنية المعرفية عند الفنان ، لكنها افضت الى شيء عزيز ، اذ عبرت عن تجربة الفنان ذاته، وهو تعبير عن زمن التجربة الحية التي عاشها الفنان، فهي معايشة افعال لا معايشة.. للثقافات والمعارف ، غير ان هذه التجارب المعاشة تحولت على يد فنانين جاءوا بعدهم الى إنشاءات من المفاهيم العامة، فهؤلاء اسعفتهم الحظوظ في عصرهم ان يتعلموا ، وان يصوغوا من تعليمهم هذا على بساطته..

إفتراضات نظرية وواقع الحال وبسبب من ضعف بنيوي إجتماعي وثقافي لحقل الموسيقى ، فأن ذلك قاد الفنان العراقي للالتجاء الى وساطات اخرى، فقد استخدم التراث والتاريخ وبعض القصص والشهادات الفنية للتدليل على قدراته الذهنية ،وبالتالي يرسم ملامح الموقف الفني الذي يجب على الناقد المتخصص ان يسير في إطاره.

وجاء جيل من محرري الصحافة الفنية، فكرس هذه المفهومات التي استقاها من الفنان وخلق حولها إستخدامات مثقلة بتوريطات خطرة وبقيت هذه الحالة تنمو وسط هذه الاستنتاجات التي لا تستطيع ان تنفذ الى داخل العمل الفني وتكشف عن منطقه الداخلي الخاص!